تمظهرات إفريقيا في شعر محمد الفيتوري

د.حليمة الشيخ- معهد الترجمة
جامعة وهران 1 , أحمد بن بلة

Résumé : L'expérience poétique du poète soudanais " Mohammed Fetouri" (1936 à 2015) représente une voix distinctive dans le mouvement contemporain de la poésie arabe car elle a révélé la souffrance humaine africaine et la lutte pour la libération du colonialisme et de l'esclavage et de la discrimination.tirée de la poésie arabe une façon de chanter à travers laquelle le continent africain et exprime également ses valeurs d'identité et de sa spécificité comme d'autre poètes qui ont lutté pour le continent africain et pour sa libération de l'esclavage et du colonialisme: Lépold Sédar Senghor, Aimé Césaire et Léon-Gontran Damas

Ainsi, cette contribution vise à détecter les manifestations de l'Afrique dans la poésie de Mohammad Fetouri.

Abstract : The poetic experience of the Sudanese poet "Mohammed Fetouri" (1936 to 2015) represents a distinctive voice in the contemporary movement of Arab poetry because it revealed African human suffering and the struggle for the liberation of colonialism and slavery and From Arabic poetry a way of singing through which the African continent and also expresses its values of identity and its specificity as other poets who have struggled for the African continent and for its liberation from the " Slavery and colonialism: Lépold Sédar Senghor, Aimé Césaire and Léon-Gontran Damas Thus, this intervention aims to detect the manifestations of Africa in the poetry of Mohammad Fetouri.

توطئة: أخذت القضية الإفريقية تمتد باتساق في خطين متوازين، بل ومتقاطعين في أغلب الأحيان بين مجموعة من التأملات عن مفهوم الانتماء الإفريقي وجوهره، وطبيعة الكتابة الأدبية التي تتخذه منبعا ومصبا لها في الوقت ذاته.وهو ما أدى إلى ولادة مفهوم جديد عرف بـ: "الزنجية" (Negritude) الذي فتح أمام نقاد الأدب في العصر المعاصر آفاق علمية جديدة في دراسة النصوص والتعرف على خصائصها النوعية ومقاييس اختبارها.ومنه تظهر الحاجة المعرفية الملحة في تقديم إطار نظري يسمح بوضع مختلف الرؤى المشكلة لمفهوم الزنجية، وهي حاجة تنبع من ضرورة ربط المعرفة المستمدة من النصوص بإطار نظري يساعد في فهم منطق تركيبها.

تعد الزنجية حركة أدبية وسياسية في الوقت ذاته، ظهرت لتفضح الممارسات الاستعمارية الغربية اللاإنسانية ضد شعوب إفريقيا التي استعمرتها، ونهبت خيراتها، واستعبدت أبناءها.وقد تأسست الحركة على يد الطلبة السود في باريس عام 1930، وكان في طليعة هؤلاء الطلبة كل من: Aimé Césaire و Léopld Sédar Senghor و Léon

Damas ومن خلال هؤلاء اتخذت الزنجية الأدب وسيلة للتعبيرعن أفكارها والدعوة إلى التحرر ورفض العبودية كما عملت على إيصال صوت إفريقيا إلى كل العالم.

وتجدر الإشارة إلى أن المؤلفات العربية القديمة في التاريخ والرحلات والآداب اهتمت "بالزنج وثوراتهم، ومنها ثورة الزنج في الدولة العباسية. وكان يطلق على ما يعرف اليوم بالصومال وجيبوتي: برّ الزنج وبلاد الزنج كما ان السيوطي ومن قبله الجاحظ وآخرون وصفوا أنماط لفظية ذات أصول زنجية بحسبانها دخيلا لغويا أو رافدا ثقافيا في المجتمع العربي.وقد استقر مصطلح الزنج والزنجية في الكتابات العربية التراثية، مع استعمال محدود لكلمة:الزنجان والزنجانية، ولكن لم يكتف العرب المحدثون باستخدام تلك الكلمات، بل عمدوا إلى صيغة الفعولة من الكلمة كأنها أكثر انفعالا أو تفاعلا من الزنجية، شأنها في ذلك شأن العربية التي صارت عند القوميين "العروبة"(عبد الحي، 2015: 74). ومع هذا الذي أتينا على ذكره هل يمكن تحديد معنى لفظ الزنزوج؟ "هل نعني بـ "الزنوج"، كما درج التعيين، المنحدرين من أصل إفريقي، أي أحفاد الأفارقة الذين جرى استعبادهم في غير بلد خارج إفريقيا؟طبعا، ونعني بذلك ما سماه ليوبولد سيدار سنغور في عبارة جميلة ومشهورة على أنه"إفريقيا المتشظية" في العالم.ولكن هل يكفي اللون وحسب للتعريف بهؤلاء؟ وماذا تعني سلالة الأنساب حين ترقى إلى أربعة قرون من الاقتلاع الافريقي والتشريد في بقاع الدنيا؟ لا قيمة لهذا كله ولم يقم شعراء أمريكا الشمالية أو في جزر المحيط الهندي وفي بقاع أخرى من العالم ولم يتبنوا تركة التاريخ الدامية ولم يرفعوها في وجه العالم على أنها هويتهم"المستعادة"(داغر، 1989: 06)".

ومن هنا ندرك أن الحركة الزنجية في عمقها هي محاولة للاعتراف بكينونة الرجل الأسود أي الاعتراف بتاريخه وثقافته، والقضاء على محاولات الالتحاق بالرجل الأوروبي ومماثلته. وبمعنى آخر قطع الصلة بنموذج الحضارة الغربية، والاحتفاء بالقارة السوداء. وبهذه الرؤية أبدع الشاعر السوداني محمد الفيتوري قصائده الأولى. فمن هو الشاعر محمد الفيتوري؟

1- تعريف محمد الفيتوري:

ولد محمد مفتاح الفيتوري عام 1936 ببلدة الجنينة غرب السودان. وهو من قبيلة المساليت المشهورة بالفروسية. انتقل رفي صغره إلى مصر رفقة أسرته حيث تلقى تعلمه. وعاش فترة من شبابه في مدينة الإسكندرية. عمل محررا ادبيا في العديد من الصحف المصرية واللبنانية. عين خبيرا إعلاميا في الجامعة العربية في الفترة 1986-1970 ثم مستشارا ثقافيا في السفارة الليبية بإيطاليا وبلبنان. شغل منصب السفير الليبي بالمغرب. توفي بالرباط في 24 أفريل 2015.

2- محمد الفيتوري وإفريقيا:

يدرك المطلع على الشعر العربي المعاصر عامة وشعر الفيتوري خاصة أن هذا الأخير يشكل ظاهرة لافتة للنظر تتمثل في التغني بإفريقيا، والدفاع عن الإنسان الإفريقي، فالتيمة المهيمنة والفارقة لتجربته الشعرية في مرحلتها الأولى تكمن في بروز إفريقية بوصفها

عاملا استراتيجيا يتحكم في العوامل الشعرية المختلفة المؤسسة للنص الشعري، ويوجه جماليتها وفعاليتها. وقد خص إفريقيا بأربع مجموعات شعرية هي: أغاني إفريقيا عام 1956 وعاشق من إفريقيا عام 1964 واذكريني يا إفريقيا عام 1965 وأحزان إفريقيا 1966. ولاشك أن خطاب الفيتوري الشعري في مرحلته الأولى يغري بتتبع كيفية تمظهر إفريقيا فيه، واعتباره وثيقة من الدرجة الأولى لشعر عربي اهتم بإفريقيا. فهو كما لقبه الناقد نجيب العوفي"ناي إفريقيا العربي". ويفيد التذكير أن صدور ديوانه "أغاني إفريقيا" كان سببا في شهرته وكان له صدى واسعا في الأوساط الأدبية العربية والنقدية.قال فيه زكريا الحجاوي:"هذا الديوان شيء جديد في شعرنا القومي، لا لأنه كما حسب البعض أول ديوان اكتملت فيه شاعرية أحد أبناء الجلدة الإفريقية، وإنما لأنه أول ديوان شعر اكتملت فيه عناصر الفن القومي لأبناء جلدة "الفرزدق"(110ه_728م) و"نصيب" (108ه_726م). وقال سلامة موسى: "هذا الكتاب هو أوجاع القلب ـ وكان يمكن أن يسمى"مراثي إفريقيا لولا ان المؤلف لا يبكي ولكنه يغضب... هونبع جديد من الأفكار."وجاء في مجلة المصور في عددها 2320 الصادر عام 1969 أن "الجديد في هذا الديوان (أغاني إفريقيا) انه أول صرخة إنسانية إفريقية تتخذ الشعر العربي أسلوبا لها وتعبر من خلاله عن قضايا ومشاكل إفريقيا"(منيف موسى، 1985: 133).

ومرد هذا الاهتمام الكبير بإفريقيا ومعاناتها لدى الشاعر في نظرنا الأصول الزنجية التي ينشد إليها الفيتوري، والتي عبر عنها في قوله:"أبي سوداني، وأمي ليبية ابنة واحد من أكبر تجار الرقيق في ليبيا في بداية القرن ، وكانت جدتي من أمي جارية سوداء تزوجها جدي وأعتقها، وفي حضن هذه الجدة تربيت مدة من حياتي متشبعا بتاريخ النخاسة" (منيف موسى، 1985: 61) وإذ نستحضر هذا القول فلتأكيد أن اهتمام الفيتوري بإفريقيا نابع من أصوله التي جعلته وهو ابن السودان يدرك التفرقة العنصرية بين اللون الأسود واللون الأبيض منذ نعومة أظافره، كما جعلته يحمل المرارة الشديدة والحقد في نفسه جراء انتمائه.ولا ينبغي أن يغيب عنا أن الفيتوري قد نشأ وعاش قسطا من شبابه في الإسكندرية، وهي "مدينة سيطرت فيها الأقلية الأوروبية البيضاء، مكونة ارستقراطية انعزلت عن أبناء المنطقة المحلية وتعالت بعنجهيتها العنصرية عليهم.وقد لحق بها أبناء الباشوات والحكام وبطانة العهد التركي البائد في مصر، وهؤلاء جميعا لم يعرفوا الوجه الأسود إلا خادما ذليلا"(منيف موسى، 1985: 61). وبما أن الإسكندرية كانت مجتمعا طبقيا كان من الطبيعي أن يشعر الفيتوري بالاختلاف والمفارقة بين الناس بسبب العرق مما سيؤدي به إلى الشعور بالدونية وإلى الغضب إلى درجة أن يكتب قصيدة يهجو فيها نفسه:

فقيـر أجـل ودميـم دميـم بلون الشتاء...بلـون الغيـوم
يسير فتسخر منه الوجوه وتسخر حتى وجـوه الهـمم
فيحمل أحقاده في جنـون ويحضن أحزانه في وجـوم
...
فـقيـر..فوجه كأني بـه دخـــان تكشـف ثم التحم

وعينان فيه كأرجوحتين مثقلتيــن بريــح الألــم
وأنف تحدر ثم ارتــمى فبــان كمــقبرة لم تــتم
ومن تحتها شفة ضخمة بــدائيــة قــلــما تبــتسم
وقامته لصقت بالـتراب وإن هزئت روحه بالقمم

يحمل هذا التصوير حدّة تعكس في ثناياها المرارة التي يستشعرها الفيتوري في نفسه بسبب لونه الأسود الذي ولد مأساته، ومأساة إفريقيا:

عجوز ملفعة بالبخور
وحفرة نار عظيمة
ومنقار بومة
ورقصة سود عرايا
وغيبوبة من خطايا

إفريقيا إذن، تتمظهر في صورة عجوز ليس لها ما تقدمه، فهي في أواخر العمر. وكل ما تملكه هو أبناؤها العرايا الذين لا يحسنون إلا الرقص، وخطاياها الكثيرة مما يؤكد بدائيتها، وبعدها عن كل حضارة وبهذا تبقى إفريقيا صورة للأرض المستغلة في قصيدة "العائدون من الحرب" (الفيتوري، 1972: 153_ 154). ولم يقف إحساس الفيتوري بالمأساة عند نفسه، بل تعداه إلى شعبه وليس سهلا على شاعر مثله أن يرضى بحال وطنه الكبير إفريقيا ويطمئن لما تكابده من الظلم والاستبداد:

لقد عدنا..أجل عدنا من الحرب ميامينا
على أعناقنا قد عبأوا النصر رياحينا
ومن أفواهنا قد جسموا المجد...أرانينا
لقد عدنا..ولكن لا كما شاءت أمانينا
ألا ليتنا متنا بعيدا عن أراضينا..
لقد عدنا من الحرب إلى الحقل إلى المصنع
لكي نحرث، لكي نبدر، كي نحصد كي نجمع
لكي نبني للغير..لكي نطهو ولا نشبع
لكي نحلم بالفجر الذي من يدنا يسطع
لكي نصنع حربا ضخمة أخرى...لكي نصنع

يشير توالي الأفعال في النص هنا إلى الاستغلال الفظيع الذي يتعرض له الإنسان الإفريقي على كافة أصعدة الحياة .وعلى الرغم من تقريرية تلك الأفعال التي تخلو في ظاهرها من آليات التصوير، فإنها توقظ لدى المتلقي الوعي بالوضع المأساوي للإنسان الإفريقي. تلك المأساة المرتبطة باللون الأسود، الذي خول للرجل الأبيض ممارسات لاإنسانية في حق الإفريقي:

ألأن وجهي أسود

ولأن وجهك أبيض

سميتني عبدا

ووطئت إنسانيتي

وحقرت روحانيتي

فصنعت لي قيدا

ولابد من الإشارة إلا أن الإحساس بالمأساة مرتبط عند الفيتوري بفترة معينة من حياته، وهي التي يقول عنها: "عندما كنت طفلا، في مدينة الإسكندرية، لم تكن المياه تتدفق مثلما هي عليه الآن.حينذاك كنت لا أرى من الإنسان، إلا لون الإنسان، قشرته الخارجية هي وحدها، إشارة وضعه الطبقي، وهي الحاجز الفاصل بين قيمته ومحتواه، وبين قيم ومحتويات الآخرين.حينذاك كانت الأيام، تختلط في عينيّ..وكانت الرؤى تتداخل..كانت مجرد نظرة متشنّجة.ابتسامة ساخرة، التفاتة دون قصد، تحدث في داخلي انفجارا كونيا مدمرا، تتداعى خلاله الانفعالات. والتأويلات الكابوسية، المثيرة للقشعريرة، والمغرقة في الأوهام والاضطرابات." (الفيتوري، 1992: 07) وهذا الإحساس المثقل باللون وبالاضطهاد هو الذي دفع به إلى أن يصدع بزنجيته في قصيدته المعنونة بـ "أنا زنجي" في صورة هي أقرب ما تكون إلى احتفالية بالزنجية:

قلها لا تجبن..لا تجبن

قلها في وجه البشرية

أنا زنجي

وأمي زنجية

أنا أسود

أسود لكني حرّ أمتلك الحرية

أرضي إفريقية

عاشت أرضي

عاشت إفريقية (الفيتوري، 1972: 80_81)

وهكذا ينطلق الفيتوري من معاناته الذاتية الشخصية إلى معاناة إفريقيا عامة. والانتهاكات الاستعمارية الغربية تركت آثاراً سلبية على مختلف مناحي حقوق الأفارقة سواء حقهم في الحياة، أو حقهم في التعليم أو حقهم في الحرية، أو حقهم في مستوى معيشي أو صحي ملائم.

وتجدر الإشارة إلى أن مقاومة المحتلين في تاريخ الشعوب عرفت تعددا وتنوعا في أساليبها بحيث يبذل الإنسان دائما كل ما في قدرته للدفاع عن أرضه وعن قضاياه. فالجندي يدافع بالسلاح داخل المعركة، والفنان يناضل بريشته، والشاعر يكتب قصائده ليحرض على الثورة والتضحية من جهة، وليكشف الغطاء عن جرائم العدو من جهة أخرى.ومن هنا تبرز أهمية

أدب المقاومة ودوره في إذكاء روح المقاومة بين أبناء الشعب، ونشر الوعي بضرورة التصدي للعدوان والظلم. ولأجل ذلك كان لكل ثورة شهدها التاريخ شعراؤها الذين يناصرونها، ويمجدون الانخراط في ركبها، ويحثون على بذل كل نفيس في نصرتها. وبهذا يقف الشعراء إلى جانب المناضلين للدفاع بأقلامهم عن عدالة قضيتهم وبالتالي لا يستطيع أي أحد أن ينكر الدور العظيم الذي تلعبه الكلمة في المقاومة إذ إن تأثيرها لا يقل عن تأثير السلاح. وبناء عليه يمكن القول إن المقاومة بالكلمة لا تقل شأنا عن المقاومة المسلحة.

لا ينفصل الشعر عن المقاومة إذ إن كتابة الشعر هي ممارسة واعية ومقاومة تكمل المقاومة في جانبها السياسي والعسكري ضد الاستعمار، وضد كل أشكال الظلم والقهر بحيث تأخذ كتابة الشعر قيمتها من خلال نضالها ودعوتها إلى تحقيق الحرية.وداخل هذا الإطار تحرك شعر محمد الفيتوري في مساءلة الواقع الإفريقي من أجل تحقيق التغيير اللازم لواقع أفضل.ومن هنا سعت نصوص محمد الفيتوري إلى بث روح التحرر، وغرس الوعي الثوري في نفوس الناس عبر عملية رصد مناحي الحياة الإفريقية المختلفة، والكشف عن صور الذل والاستكانة التي تجب مقاومتها أشد المقاومة، ولذا يقوم خطاب المقاومة لدى محمد الفيتوري على التحريض على الرفض والتمرد على الأنظمة السائدة والفاسدة من جهة أخرى.ومن هنا فإن المقاومة في شعر محمد الفيتوري تعزيز لدور الإنسان العربي لاستعادة حريته ولقدرته على التغيير والبناء.وبالتالي فإن خطاب المقاومة لديه هو في الأساس رد فعل ضد الهيمنة والاستبداد، ودفاع عن حق الإنسان الإفريقي في حياة أفضل قائمة على الحرية والاستقلال والعدالة

ووفق هذه الرؤية التي يحملها هذا النص يقدم محمد الفيتوري نصوصه الشعرية التي تنـــطلق من الواقع الإفريقي وما يحـــتويه مـــن مظاهر الظـــلم والاستبداد بهدف بث روح الرفض والـتمرد في نفـــوس أبناء الوطن.ولذا نلفي النص الشعري لديه ينحدر أساسا من رفض الواقع مما يدعوه إلى الدعوة إلى التحرر لكسر قيود الاستعمار وقيود الاستبداد، يقول في قصيدة "البعث الإفريقي": أفريقيا استيقظي

استيقظي من حلمك الأسود
قد طالما نمت...ألم تسأمي
ألم تملي قدم السيّد
....
إفريقيا
إفريقيا استيقظي
استيقظي من نفسك القابعة
أ كل ما عندك أن تصبحي مزرعة

للأرجل الزارعة

أ كل ما عندك أن تلعقي أحذية المستعمر اللامعة

أ كل ما عندك أن ترقدي

خاملة..حائرة..خاضعة

أ كل ما عندك أن تصدّري قوافل الرقيق

يا ضائعة

إن الشاعر يستغرب الخضوع للأجنبي الذي يستغل الأرض والبشر على السواء، ولا يقابل بالمقاومة التي يفترض أن تكون قوية لتحقيق التحرر من ربقة الاستعمار والاضطهاد.وهو الأمر الذي سيدفع به إلى الحث على الثورة:

لستم بنينا إن لم يجل الغاصب عنها مدحورا

إن لم تخلع أكفان الظلمة

إن لم تتفجر نورا

إن لم يرتفع العلم الأسود

إن لم يحن التاريخ لكم جبهته فرحان فخورا

والحث على الثورة عند الفيتوري في تقديرنا ينبع من الصورة التي يحملها عن نفسه حيث يشكل الشعر سلاحه وثروته في الوقت ذاته:

صناعتي الكلام

سيفي قلمي

وكل ثروتي شعور ونغم

في قصيدة "إلى نيلسون مانديللا" (الفيتوري، 1992 :41):

مانديللا

إن حريتي هي ميراث أرضي

ومعجزتي

وتوهج دربي

مانديللا

إن حريتي هي حريتي

في خلود نضالي

وفي عبقرية شعبي

مانديللا

إن حريتي هي بدئي وخاتمتي

وهي ديني العظيم وربي

والدعوة إلى رفض الاستعمار والظلم تجد مسوغاتها في إيمان الفيتوري بشعبه وتاريخه الحامل لصموده ونضاله والحافل بأمجاده البطولية أيضا:

أنا لا أملك شيئا غير إيماني بشعبي
وبتاريخ بلادي
وبلادي أرض إفريقيا البعيدة
هذه الأرض التي أحملها ملء دمائي
والتي أنشقها ملء الهواء
والتي أعبدها في كبرياء

يتبين لنا مما سبق أن محمد الفيتوري في تصويره لإفريقيا انطلق من واقع العبودية والاستعمار لينتهي إلى تأكيد الهوية الحقيقة لإفريقيا وللإنسان الإفريقي وهي هوية الحرية التي تستوجب الكفاح والثورة. من أجل استرداد الكرامة وتحقيق حياة أفصل. وهو ما عكس تطلعات الإنسان الإفريقي في قصائده.

المصادر والمراجع

- الفيتوري، م.1972.الديوان. دار العودة. بيروت.
- الفيتوري، م.1992.يأتي العاشقون إليك. دار الشروق. القاهرة- بيروت.
- شربل، د.1998.أنطولوجيا الشعر الزنجي. المؤسسة العربية للدراسات والنشر.بيروت.
- عبد الحق، ع. 2015. لغتنا العربية والسياسة. العربي للنشر والتوزيع. القاهرة.